سلسلة القصص الهادف

(٥)

النهاية الأليمة

تأليف

الشيخ منصور الرفاعي عبيد
من علماء الأزهر الشريف

د٠إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
كاتب أطفال

فبراير ٢٠٠٠م

النهاية الأليمة

أي بُني ...

حكايتنا اليوم هي حكاية كل زمان ومكان ...

هي حكاية تحدُث لكل إنسان لم يستطع أن يُحكِم عقله ...وهي تحدث نتيجة السفه وعدم الحكمة في الإنفاق وفي تصريف مجريات الأمور ...

فتعالوا معنا نعيش الأحداث ...

كان يا مكان ... في بلد من بلاد المسلمين الواسعة ...

كان هناك الشيخ عبد الصمد ، الذي بدأ حياته وهو يعيش في كوخ صغير ، ولكنه كان قانعاً بحاله ، ولذلك منحه الله صحة طيبة ، فشكر نعمة الله ، فظل يتردد على المسجد بانتظام ،ويؤدي واجباته وفروضه الدينية والدنيوية بدقة وأمانة ...

وكان لدى عبد الصمد قطعة أرض يزرعها ويقوم على خدمتها وفلاحتها ...ويعطيها جهده وعرقه فبدأت تنتج وتؤتي خيراتها ...

ولم يكتفي عبد الصمد بخير الأرض ، فزود نفسه بالتعليم ، فتعلم أصول دينه وفقه إسلامه ، فعرف مبدأ توفير المال الزائد ليستطيع قضاء مصالحه وحوائجه المختلفة في الأيام المقبلة من حياته ...

ومضت الأيام ، واستطاع الشيخ عبد الصمد أن يدخر مبلغاً كبيراً ، استثمره في بناء بناية ضخمة ، كما أقام حظيرة لتربية المواشي ، وفتح الله عليه برزق وفير فتزوج وأنجب ولدا وبنتاً ...

وتوالت الأيام ، ومال عبد الصمد يتضاعف وينمو ، وهو يحمد الله على ذلك الخير والرزق الوفير ، فلا ينسى شكر الله وتأدية واجباته تجاه المال من زكاة وصدقات ، وأصبحت السعادة تغمر عبد الصمد وزوجته وأولاده ...

وكان يعيش بالقرب من الشيخ عبد الصمد رجل هو : خليل ، وكان هذا الرجـــل رغم غناه وثروته تظهر عليه علامات التعب والإرهاق ، كما أن مظاهر الغنـــى والثروة لم تبدو ولم تزداد ولم تنمو معه على مر الأيام والسنوات ٠٠٠

وعندما كان يقوم خليل بزيارة للشيخ عبد الصمد في بيته أو حتى في حظيـــرة مواشيه ، لم يكن يرى سوى الخير الوفير وكرم الضيافة ، فكانت تأكله الحسرة على حاله وعلى خيبته في التجارة وتنمية أمواله ، وكلما سمع عن قيام الشيخ عبد الصمد بشراء قطعة أرض أو إقامة مصنع على أرضه كان يَعُــض علـــى شفتيه من الندامـــــــــة على حاله الذي يزداد سوءً ا ٠٠٠

وتمر الأعوام بسرعة من الجد والاجتهاد ، فيتحرج ابن الـــشيخ عبـــد الـــصمد الذي يُسمى إبراهيم مهندساً ٠٠٠كما تتخرج ابنته التي تُسمى حنان طبيبـــة ، بل ونجح الابن ونجحت البنت في ممارسة عملهم ٠٠

وبينما كانت الطبيبة حنان تكشف على التلاميذ في أحد المدارس ، فوجدت ابن جارهم خليل بين الطلاب ، ففحصته جيدا لأنه ابن جارهم وصـــديق والـــدهم ، ففوجئت بأنه ليس بصحة طيبة ٠٠

وعندما عادت للمنزل ، قالت لوالدها والألم يملأ ملامحها :

ــ هؤلاء الأولاد يا أبي عندهم فقر دم واضح ، كما أنهم يعانون مـــن أنيميـــا حادة ، وهذه الأمراض مكتسبة من الأم والأب !!

فظهر الحزن على وجه الشيخ عبد الصمد، وأسرع بالذهاب إلى منزل صـــديقه خليل ، ودخل عليه وهو حزين ، وسأله :

ــ أليس عندك الأطيان كما هي عندي ، أليس عندك المال أيضاً ، فأين ذهـــب هذا الخير الوفير يا أخي ؟

فقال خليل وهو يكاد يخفي وجهه من الخجل :

ـ يا صديقي ٠٠ أرجوك لا تسألني مثل هذه الأسئلة حتى لاتُقلب عليّ المواجع ٠٠ نعم أرجوك لا تسألني حتى لا تُتْعب ضميري ٠٠٠

فابتسم الشيخ عبد الصمد ، وهو يتساءل :

ـ لا تحزن يا أخي ، لا تحزن ولا تتشاءم هكذا ٠٠٠ يجب أن تعرف وتتيقن من إن الله سبحانه وتعالي يقبل التوبة الصادقة من عباده ، فإذا كنت قد أخطأت فإن الله غفور رحيم ٠

فقال خليل وهو يكاد يبكي نادماً :

ـ لقد صرفت مالي هباءً ، صرفته على الطامعين والأصدقاء وغيرهم ، وعلى نزوات من أجل البطن وما حوت !

فقال له الشيخ عبد الصمد :

ـ يا صديقي ، أما علمت أن ذلك يعتبر في حكم الإسراف ، والذي يؤدي دائماً إلى الضياع والندم ٠

فبكى خليل وهو يقول :

ـ بل نحن أسرفنا بالفعل في طعامنا وشرابنا ، وأنفقنا أموالنا على ملء بطوننا ، ولكن كيف نصاب بالأنيميا وفقر الدم وغير ذلك ونحن نملء بطوننا باللحوم وما طابت الأنفس ؟

فقام الشيخ عبد الصمد وقال له :

ـ أنا لا أعرف السبب ، هيا معي إلى منزلنا لنأخذ رأي ابنتي الطبيبة نجوى في هذا اللغز ٠

وتوجه الشيخ عبد الصمد وبرفقته جاره خليل إلى المنزل ، وتحدث سويا معها ، فابتسمت الطبيبة نجوى وهي تقول :

ــ أما علمتم أن المعدة إذا مُلئت بالطعام لا تستطيع أن تهضم ما فيها وتُصاب بعسر الهضم أو ما يسميه الناس (التخمة)٠٠

ثم واصلت الطبيبة نجوى كلامها قائلة :

ــ وإذا أُصيبت المعدة بهذا ، فإن الطعام الذي مُلئت به لا فائدة من ورائه ولا خير للجسم منه ٠٠٠

فاندهش خليل وتساءل بلهفة :

ــ كيف ذلك ونحن نأكل اللحم وما نشتهي ؟

فابتسمت الطبيبة نجوى عبد الصمد وهي تقول :

ــ يا والدي ، أنت وعمي خليل ، تعلمان أن المعدة بيت الداء ، وأن الرســـول صلى الله عليه وسلم قال (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ،فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثُلث لنَفَسه) متفق عليه

فقال الجميع:

ــ صدق رسول الله صلي الله عليه وسلم ٠٠

وعندها سمع الجميع صوت أحد الدعاة وهو يقول في أحد البرامج التلفازية :

ــ إن الإسلام عندما دعا إلى الاقتصاد وعـــدم التبـــذير ،إنمـــا أراد أن يُـــدخل السعادة علينا من أجل الصحة لأجسامنا والهناء والسرور لنفوســـنا ، ولـــذلك حذرنا الله عز وجل من النهاية الأليمة لإخوان الشياطين الذين هم المـــسرفين والمبذرين ٠٠

ــ يا إلهي !!! قالها خليل وهو يشهق ٠٠٠

بينما واصل المتحدث عبر التلفاز حديثه بقوله :
ــ ولذلك ، فأنت تجد المسلم المعتدل يمشي بين الناس بخطى واثقة وهو مطمئن ، لأنه يتمتع بصحة ، فليس هناك اضطراب في معدته ولا خمول في عينيه ، وأعلموا أن من أكل كثيراً نام كثيراً ، ومن نام كثيراً فاته خير كثير ، لهذا دعانا الإسلام إلى الاعتدال والوسطية ، فالاعتدال من أحسن الأمور وأنفعها للإنسان في حياته ٠
فتنهد الشيخ عبد الصمد ، وتوجه بنظره ثاقبة إلى جاره خليل ليكتشف تأثير الحديث عليه ، الذي سارع فقال له : لم ينقطع اللحم عن بيتي يوما واحداً وبكميات وفيرة ، كم تشتري أنت من اللحم لبيتك يا شيخ عبد الصمد ؟
فقال الشيخ عبد الصمد وقد فهم مغزى السؤال :
ــ دعنا من الشراء ، ولكن فلتسألني : كيف آكل أنا وأولادي ، فإن اللحم ليس هو الطعام الأساسي ، فعليك أن تنوع في الطعام وخير شيء للجسم الخضراوات الطازجة والألبان علاوة على عسل النحل الذي يعتبر غذاء ودواء ، فلم إذا تهتم باللحم وتترك كل هذه الخيرات التي هيأها الله عز وجل لنا ؟٠
فظهرت علامات الندم في عيني خليل وهو يقول :
ــ أُنظر إليّ وإلى أولادي، إننا نشتري كل يوم من اللحوم كميات كبيرة ، ونهتم بطبخها من خلال أنواع متعددة ، ثم نأكل القليل ونُلقي الباقي في صناديق القمامة ، لأنه يفيض عندنا بكثرة !!
فظهر الغيظ على وجه الشيخ عبد الصمد وهو يقول :
ــ هذا تبذير كما سمعت ، إنه سفه وإسراف ، واعلم أن الله عز وجل قد وضع المبذرين والمسرفين مع الشيطان الرجيم في كفة واحدة ، قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) الآية ٢٧ سورة الإسراء صدق الله العظيم ٠

ثم بلع الشيخ عبد الصمد ريقه ، وقال :

ـ ثم إن الطعام الذي تُلقي به في القمامة الشيطان يأكل منه ، وإلقاء الطعام حرام لأنك تلقي بتعبك وتعب أولادك وجهود زوجتك في صناديق القمامة ، بدون فائدة ، أليس كذلك يا خليل ؟

فأسرع خليل يقول :

ـ ولكن الحيوانات تستفيد منه وتأكله يا شيخ عبد الصمد !

فابتسم الشيخ عبد الصمد وهو يقول :

ـ لا تكابر يا خليل ، فاحسب أنت كم أنفقت على شراء هذا الطعام وكم أتعبت زوجتك في إعداده ، يا خليل إنك مُبذر ، فلقد أتعبت جسمك وضيعت مالك وأجهدت زوجتك وضيعت صحة أبنائك ، فلِمّ المكابرة ؟

فظهرت علامات الوجوم والحزن على وجه خليل وتساءل :

ما العمل إذن يا صديقي ؟ ، أرجوك دلني على الطريق الصحيح...

فقام الشيخ عبد الصمد من مجلسه ، وقال صاحبه :

ـ هيا بنا إلى المسجد نصلي المغرب وسنجد الفرج هناك إن شاء الله ...

واتجه خليل مع الشيخ عبد الصمد إلى المسجد لأداء صلاة المغرب ، وعندما دخلا إلى المسجد كان الإمام قد بدأ صلاته وبعد قراءة الفاتحة قرأ قوله تعالي : (وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يُحب المسرفين) الآية ٣١ سورة الأعراف وأتم الجميع صلاة المغرب ، وبعدها قاموا لصلاة السنة الراتبة ، وجلسوا يستمعون لدرس الإمام ، ونظر خليل للشيخ عبد الصمد وكأنه يرجوه القيام والخروج من المسجد ، ولكن الشيخ عبد الصمد هزّ رأسه بالنفي ، وبدأ الإمام يشرح الآية التي قرأها في أول ركعة ، فقال :

ـ إن الله سبحانه وتعالى الذي نهانا عن الإسراف نهائيا ، نهانا أيضاً عن البخل ، لأن الإسراف نقمة ، كما أن البخل ندم ، وكلاهما شر على الإنسان ،

ولكن الأفضل لكل شخص أن يتوسط في حياته ويعتـدل ، فالاعتـدال فـضيلة ونعمة ، وعلى المسلم أن يحافظ على النعمة لأن من حافظ عليها دامت لـه ، فحفظك لنعمة الله التي عندك هي من باب الشكر ، وشكرك لله على نعمه يجعله سبحانه يضاعفها لك ، قال تعالى (والذين أنفقوا ولم يسرفوا ولـم يقتـروا) الآية ٦٧ سورة الفرقان

ثم تلا قول الله عز وجل (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لـشديد) الآية ٧ سورة إبراهيم ، والآيات كثيرة في هذا الخصوص

ثم واصل حديثه قائلاً :

ــ فمن شكر النعمة أنك إذا جلست لتأكل، فقم بتسمية الله تبارك وتعالى ونقول كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم تأكل بيدك اليمنى ، والأفضل أن تأكل نوعاً واحداً أو نوعين على الأكثـر لأن كثـرة الأنواع في الطعام تفقده المزية وتجعل الصراع بين الطعام في المعدة يزيـدها تخمة ، لأن المعدة تتقبل جزءًا وترفض الجزء الآخر ٠٠

فقاطعه خليل :

ــ هل الإسلام يتعرض لهذا يا مولانا الشيخ ؟

فابتسم الشيخ وقال :

ــ الإسلام دين حياة ، بمعنى أنه لم يترك شيئا من حياتنا لـم يوجهنـا فيـه ، فالإسلام مثلاً يعلمنا الادخار حتى نستطيع أن نخرج الزكاة لنقوم بتوزيعها على الفقراء والمساكين ، وحتى نستطيع أن نقوم بتأدية فريضة الحج الذي فرضـه الله علينا ، وأمرنا بالادخار لنستطيع أن ننفق على أولادنا ونرفع من مستواهم المادي والأدبي والاجتماعي ونلبي احتياجاتهم ، عكس الإنسان المُبذر فدخلـه كثير ولكنه فقير جداً ، لأنه ينفق ببذخ ويبعثر ماله على ما يفيده وعلـى مـا يضره أيضاً ٠٠

فقاطعه خليل بتساؤل ثاني :

ـ الادخار أقرب للبُخل يا مولانا ، أليس كذلك ؟

فرد عليه الشيخ بسرعة :

ـ لا ، لأن الإنسان البخيل يقتر على أولاده فيدعوهم إلى التمرد على الحياة ، وإلى اللجوء لبعض الناس فيطلبون المساعدة ، فهناك فرق كبير بين البخيل والمدخر ، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى ذم المُبذر كما ذم المقتر ، من خلال قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)الآية ٢٩ سورة الإسراء

ثم توجه الشيخ بالسؤال لخليل :

ـ أفهمت هذا التوجيه الإلهي ، وهل أدركت معناه ومغزاه ؟

فرد خليل بسرعة وهو يقول :

ـ سبحان الله ، كنا نظن أن الدين مجرد ركعات نؤديها في المسجد أوفي المنزل وكفى !!

فاعتدل الإمام في جلسته وقال :

ـ إن ديننا الحنيف يتعامل مع كل إنسان في حياته ويرسم له طريقه الصحيح القويم ، قال تعالى (وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم) الآية ١٥٣ سورة الأنعام ٠٠

ثم قال وهو يختتم حديثه :

ـ لهذا كان الاعتدال في النفقة وعدم التبذير وعدم البخل أمور دعانا إليها الإسلام ، وتأتي متواكبة مع الأخلاق النبيلة الفاضلة والفطرة السليمة لأن الإسلام دين الفطرة كما إنه دين العقل والتفكير أيضاً ٠٠٠

فهمهم خليل وهو ينظر إلى جاره الشيخ عبد الصمد ويقول لسان حاله :

ـ انظروا إلى أسرة جارى عبد الصمد ، فلقد أتم الله عليه النعمة لأنه معتدل في حياته ، فأحسن تربية أبنائه ، وأكرمه الله ببناء العمارات والبنايات بعد أن كان يسكن في كوخ صغير ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنها صريحة (نعْم المال الصالح للرجل الصالح)

ونظر الشيخ عبد الصمد لجاره وهو مشفق عليه ويقول في نفسه :

ـ الحمد لله الذي رزقني من فضله ، فالمال الصالح هو الذي يجمعه الإنسان من حلال ومن عرق جبينه ويعتدل في إنفاقه ويتوسط في حياته فلا يميل يمينا ولا شمالا ولا يسرف فيبذر ولا يبخل فيقنط .

وأخذ الشيخ عبد الصمد بيد صاحبه وجاره ، وهما في طريقهما للمنزل بعد صلاة العشاء وهو يقول له :

ـ الحياة الإسلامية لابد أن تكون سعيدة ولذلك دعانا الإسلام للتخطيط والعمل الدائب من أجل الوصول لهذه السعادة بالمال والبنون والعمل الصالح ..

فيعترف خليل لصديقه :

ـ لقد أخطأت في حياتي ، لقد بعثرت المال على الطعام والشراب والملبس وفرش البيت وإقامة الحفلات للأصدقاء ، وهاأنذا اليوم وحيداً بعد أن تخلى عني أصدقائي عندما انتهت أموالي ومرضت فلم يزورني أحد منهم بعد أن كانوا يأكلون على مائدتي كل يوم ..

فقاطعه الشيخ عبد الصمد :

ـ لا تبك على ما فات ، ولكن ابدأ فوراً فأصلح شأنك ونظم حياتك ورتب أمورك وليكن عندك تخطيطاً للمستقبل : مستقبلك أنت وأولادك ، ولا تبعثر ما تبقى من أموالك وكن منضبطا على القيم السلوكية المعتدلة والأخلاق الفاضلة التي دعانا إليها ديننا الحنيف الدين الإسلامي الذي ارتضاه لنا الله دينا حتى يوم القيامة ...

ثم واصل حديثه أمام منزل خليل قائلاً :

ــ أنصحك يا صديقي ألا تبك على الماضي لأنه انتهى أما الحاضر فلك ولعلــك تكون فيه معتدلا وتضع القاعدة التي وضعها الله لنا أمام عينيك ، فلقــد قــال تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)الآية ٣١ سورة الأعراف ٠٠٠

وسوف تعود إليك صحتك وأموالك ويبارك الله لك في أولادك ، واحرص علــى تعليمهم المثل الشعبي (القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود)

فتساءل خليل :

ــ وماذا عن أصدقائي الذين أكلوا على مائدتي وتنكروا لي بعد ذلك ؟

فقال الشيخ عبد الصمد وهو يودعه :

ــ إذا كان هناك من أكل على مائدتك ثم تنكر لك في مرضك فهذا دليــل علــى أنك لم تُحسن اختيار الأصدقاء والأخلاء ، وأنصحك أن تتركهم وراء ظهرك ولا تصاحب إلا الطيب الأصيل الذي له جذور دينية ، لأن صاحب الــدين لا يخــون صاحبه ويقف معه في سرائه وضرائه ولا يتخلى عنك أبدا ولو أصبحت فقيــراً معدماً ، وأدعو الله أن يوفقنا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه ، وألا نكــون مــن أصحاب النهاية الأليمة في الدنيا والآخرة أبداً أبداً ٠

(تمت)

النهاية الأليمة

تأليف : د . إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
الناشر : مركز الإسكندرية للكتاب
تاريخ النشر : ٢٠٠٠ مرقم الإيداع :
التصنيف الدولي :